بهذا الشكل يتطلب البحث والتجريب الحسي، قال ابن كثير بصدد تفسير قول الله تعالى: ﴿ **وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا** ﴾[الكهف: ٣٥ - ٣٦] «لما رأى فيها من الزرع والثمار والأشجار والأنهار المطردة في جوانبها وأرجائها ظن أنها لا تفنى ولا تفرغ ولا تهلك ولا تتلف وذلك لقلة عقله وضعف يقينه بالله وإعجابه بالحياة الدنيا وزينتها وكفره بالآخرة، ولهذا قال: ﴿ **وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً** ﴾[الكهف: ٣٦] أي كائنة »[١].

ولما كان الظن لا يغني من الحق شيئا وكان السبيل إلى طمأنة النفس إزاء تلك المعارف هو التحقيق والتمحيص والامتحان فقد نشأ لهذا الهدف علم التجريح والتعديل فكان «التعديل والتجريح هو المعتبر في صحة الأخبار الشرعية لأن معظمها تكاليف إنشائية أوجب الشارع العمل بها حتى حصل الظن بصدقها وسبيل صحة الظن الثقة بالرواة بالعدالة والضبط »[٢].

● المبحث الرابع : الجدل ومشكلة الحق :

الجدل أسلوب من أساليب كشف الحقيقة متى استعمل في موضعه، وهو بدون شك يختلف عن الحوار، لأن الحوار يقترن بالاتزان النفسي وحب كشف الحقيقة لاتباعها، بينما الجدال في الغالب يتميز بالتعصب والغلظة وفي لسان العرب الجدل الشدة ومنه شدة الخصومة وفي الحديث «ما أوتي قوم الجدل إلا ضلوا»،والمراد به في الحديث الجدل على الباطل وطلب المغالبة به لاإظهار الحق[٣] لأن المجادل يبني كلامه على حكم مسبق، يريد أن يفرضه على الخصم، ولهذا

---

(١) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم : ٣/ ٨٣

(٢) ابن خلدون المقدمة :١/ ٦١

(٣) لسان العرب : مادة جدل: ١١/ ١٠٤-١٠٥

السبب نجد المجادلين يميلون لكثرة الأدلة والحجج والبراهين كي يقنعوا أو يقتنعوا، وقيل :« لا تعتبر فيه الحقيقة وعدمها بل عموم الاعتراف والتسلية »[١]، قال القرطبي :« والمجادلة : دفع القول عن طريق الحجة بالقوة، مأخوذ من الأجدل، طائر قوي، وقيل : هو مأخوذ من الجدلة، وهي الأرض، فكأنه يغلبه بالحجة ويقهره حتى يصير كالمجدول بالأرض، وقيل هو مأخوذ من الجدل وهو شدة الفتل، فكأن كل واحد منهما يفتل حجة صاحبه حتى يقطعها، وتكون حقًا في نظرة الحق وباطلاً في نظرة الباطل »[٢]، قال القرطبي :« لا تصح المناظرة ويظهر الحق بين المتناظرين حتى يكونوا متقاربين أو مستويين في مرتبة واحدة من الدين والعقل والفهم والإنصاف وإلا فهو مراء ومكابرة »[٣] .

وقد بين المولى تبارك وتعالى هذه الصفة التي تلتصق بالطبع الإنساني فقال :﴿ **وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً** ﴾[الكهف ٥٤] ثم قال بعدها :﴿ **وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ** ﴾[الكهف ٥٦]، فبين أن الإنسان أكثر المخلوقات جدلاً، ثم بين أن الهدف من ذلك الجدال في الغالب ليس هو كشف الحقيقة لاتباعها، ولكن في الغالب هو جهد عقلي يبذل لستر الحقيقة والتعمية عليها بالباطل، على الرغم من صرف الأدلة والبراهين المختلفة والمتنوعة ،وإن كان هذا النوع من الكفار لايجدي معه شيء، إلا أن يشاء الله، قال الزجاج في معنى الآية « الكافر أكثر شيء جدلاً »[٤]، قال ابن كثير :« يقول تعالى ولقد بينا للناس في هذا القرآن ووضحنا لهم الأمور وفصلناها كيلا يضلوا عن الحق ويخرجوا عن طريق الهدى، ومع هذا البيان وهذا الفرقان الإنسان كثير المجادلة والمخاصمة والمعارضة للحق

---

(١) منجد اللغة والأعلام : مادة جدل (٢) الجامع لأحكام القرآن : ٧ / ٧٧

(٣) نفسه ٣ / ٢٨٧

(٤) القرطبي : الجامع في أحكام القرآن ١١ / ٥

بالباطل إلا من هدى الله وبصَّره لطريق النجاة[١]، وقال الزمخشري: «وانتصاب (جدلا) على التمييز، يعني أن جدل الإنسان أكثر من جدل كل شيء ونحوه ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾[النحل: ٤][٢].

والشيخ بيوض يفسر الآية السابقة بقوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾[يس: ٧٧-٧٨] لينتهي إلى أن «هذا المثال يبين لنا ويوضح معنى قوله: ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾[الكهف ٥٤] حقيقة أنها مجادلة غريبة من الإنسان لربه، صورها الله تعالى في هذه الصورة البديعة حقا لمن تذوقها»[٣] وهو يرى أن في الآية إشارة إلى أن «يجادل معناه يكابر حتى في الحقائق الملموسة والأمور المرئية المحسوسة، ينكر الحق على شدة ظهوره، وينكر الشمس في وضح النهار، وينكر الشيء وهو يلمسه، وينكر الشيء وهو فيه، ... هذه الآية تصور وتبين بجلاء كيف أن الإنسان يجادل في الأمور الواضحة والحقائق الظاهرة حتى وهي في نفسه وذاته وشخصه، ينكرها أو ينكر أثرها وما تدل عليه»[٤].

وهكذا يثبت أن الإنسان مع ما صرف الله له من الآيات والأدلة والبراهين الحسية التي تجعل الحقائق الغيبية محسوسة لديه وكأنها مرئية بالعين وملموسة باليد، «مع هذا فإن الإنسان عنود لا أشد مخاصمة ولا أشد جدلا منه»[٥].

وحين تكون هذه هي صفة الإنسان في مجال الحديث عن الحقائق، فهذا يعني أن هذا هو منهج الأكثرية في المناقشات التي تدور حول الحقائق المعرفية الكبرى، بحيث تجعل هدفها من كل ذلك هو الغلبة والقهر ليستسلم الخصم بغض النظر عن الحقيقة، إذ لم تكن مقصودة أبداً، بل الهدف هو طمسها وتغييبها ليظهر الباطل ويشتد عوده.

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٣/٩٠ (٢) الكشاف ٢/٤٨٩

(٣) في رحاب القرآن ج سورة الكهف ص ٢٤٠

(٤) في رحاب القرآن: تفسير سورة الكهف ص ٢٣٩

(٥) نفسه ٢٣٨-٢٣٩

ولئن كان ابن خلدون قد عرف الجدل بقوله :«إنه معرفة بالقواعد من الحدود والآداب في الاستدلال التي يتوصل بها إلى حفظ رأي أو هدمه، كان ذلك الرأي من الفقه أو غيره»[1] فإن تعبيره بلفظ «الهدم» يوحي بأسلوب الجدل وغايته، وربما لذلك أعقب التعريف بقوله «وهو من المناحي الحسنة، والمغالطات فيه في نفس الأمر كثيرة، وإذا اعتبرنا النظر المنطقي كان في الغالب أشبه بالقياس المغالطي والسوفسطائي، إلا أن صور الأدلة والأقيسة فيه محفوظة مراعاة يتحرى فيها طرف الاستدلال كما ينبغي»[2] .

وإذ قد تبين أن الجدل صورة من صور المحادثات مذمومة في الغالب، وأنها هي الصفة الغالبة على الحوار بين أبناء البشر، فإن علينا أن نبحث عن الأسباب التي جعلت الإنسان يتطبع بهذا الطبع، ويعدل عن الحوار إلى الجدل بكثرة.

لقد سبق الحديث عن الأسباب التي تدفع المرء إلى كره الحق وكتمانه واستخدام الحيل العقلية في تغطيته وتحريفه من كذب واعتماد الظن، وقد انكشفت لنا أسباب مختلفة كانت من الدوافع إلى كل ذلك كالعناد والمكابرة والجهل والبلادة والتقليد وغير ذلك،والآن نسأل :ما هي دوافع الإنسان للإكثار من الجدل حتى صار ميزته في الخصومات فوصفه الله كما رأينا بقوله : ﴿ **وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً** ﴾ [الكهف ٥٤] وقوله : ﴿ **فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ** ﴾ [النحل:٤]

إن المفسرين يذكرون أسبابا مختلفة من شأنها أن تطبع الإنسان بهذا الطابع ومنها :

(أ) الكبر على الحق : وهو ما تكشف عنه الآية : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ** ﴾[غافر :٥٦]، أي ليس في قلوبهم إلا التكبر والتعاظم، وبه فسر سيد قطب الجدل الحاد الذي

(١) المقدمة ١ / ٨٢١ (٢) نفسه

كان بين سيدنا إبراهيم الخليل وأحد عناصر البشرية المكابرين الذين بلغ بهم التبجح إدعاء صفات الربوبية، حتى قال :﴿ **أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ** ﴾[البقرة: ٢٥٨]، قال قطب :« الكبر عن الرجوع إلى الحق يملك بالذي كفر فيبهت ويبلس ويتحير ولا يهديه الله إلى الحق لأنه لم يلتمس الهداية ولم يرغب في الحق ولم يلتزم القصد والعدل »[١] .

والحق أن الكبر هو الدافع إلى المجادلة التي ليس من ورائها سوى إبطال الحق تمامًا كما صورها قول الله تعالى :﴿ **وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ** ﴾[الكهف ٥٦]، فغرض الجدال هنا ليس هو الوصول إلى الحجة، التي يثبت بها الحق، بل هو دحض الحق وهدمه لإقامة صرح للباطل، ولذلك تجدهم يجادلون حتى بعد البيان وإقامة الحجة :﴿ **يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ** ﴾ [الأنفال :٦] .

يقول قطب رحمه الله بصدد تفسير قول الله تعالى﴿ **إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ** ﴾[غافر :٥٦]: « إن هذا المخلوق الإنساني لينسى نفسه في أحيان كثيرة ... يتبشامخ ويتعالى يحيك في صدره الكبر يستمده من الشيطان الذي هلك بالكبر ثم سُلط على الإنسان فأتاه من قبله، وإنه ليجادل في آيات الله ويكابر، وهي ظاهرة ناطقة معبرة للفطرة بلسان الفطرة، وهو يزعم لنفسه وللناس أنه إنما يناقش لأنه لم يقتنع، ويجادل لأنه غير مستيقن، والله العليم بعباده، السميع البصير المطلع على السرائر، يقرر أنه الكبر، والكبر وحده هو الذي يحيك في الصدر وهو الذي يدعو صاحبه إلى الجدال فيما لا جدال فيه »[٢] .

ونظرا إلى أن الكبر هو سبب ذلك الجدال الباطل المضل، وأن محل الكبر هو القلب فإن الله سبحانه وتعالى أنزله به عقابًا، فقال :﴿ **كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ** ﴾ [غافر ٣٥] بعد أن قال : ﴿ **الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ** ﴾ [غافر ٣٥].

---

(١) الظلال : ٣/ ٢٩٨ (٢) الظلال : ٢٤/ ٣٠٨٩

(ب) الجهل : وهو السبب الثاني الذي تكشف عنه الآية : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ** ﴾[الحج ٣] ، ومعنى ذلك أن كثيرا من المجادلين إنما يدفعهم لذلك الجهلُ وقلة العلم، أو العلمُ المزيف الذي غالبا ما ينوب منابه، وهما عاملان مساعدان لتمكين الشيطان من النفس البشرية والتغلب عليها، مما يجعل الناس ينقادون له بسهولة ويتبعونه، سواء أكان شيطان الإنس أو شيطان الجن. .

ويبدو أن الشيطان الذي يستحضره المجادلون له خصائص مميزة لذلك وصفه الله هنا بأنه ﴿ **شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ** ﴾[الحج ٣] ، إذ المَريد هو العاتي المتجرد من كل خير، المتمحض لكل شر، أي أن هذه صفة تطلق على من جاوز حد أمثاله وبلغ غاية يخرج فيها من جملتهم. يقول الزمخشري: « ويتبع في ذلك خطوات كل شيطان عات، علم من حاله وظهر وتبين أنه من جعله وليا لم تثمر له ولايته إلا الإضلال عن طريق الجنة والهداية إلى النار، وما أرى رؤساء أهل الأهواء والبدع والحشوية المتلقبين بالإمامة في دين الله إلا داخلين تحت كل هذا دخولاً أوليًا، بل هم أشد الشياطين إضلالاً وأقطعهم لطريق الحق حيث دونوا الضلال تدوينًا ولقنوا أشياعهم تلقينًا »(١) .

(ج) وحي الشيطان : وهذا السبب الثالث من الأسباب المشجعة على الجدل دفاعا عن الباطل و دحضًا للحق من أدق الأسباب وأخفاها وأشهدها على البشرية لخفائه وإصراره على التضليل، قال تعالى :﴿ **وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ** ﴾[الأنعام: ١٢١]. قال القرطبي: « أي يوسوسون فيلقون في قلوبهم الجدال بالباطل »(٢) .

وهذه الآية تكشف عن أمرين عظيمين؛ أما أولهما فإن مصدر الجدال هو وحي الشيطان إلى أوليائه من الإنس، المجادلين بالباطل ليدحضوا به الحق، ومن

---

(١) الكشاف ٣/ ٥ (٢) الجامع لأحكام القرآن : ٧/ ٧٧

كان وحيه من الشيطان لا يمكن إلا أن يجادل في الحق كيفما كان ليظل الناس، والسياق الذي جاءت فيه الآية يبين أن الجدال هنا كان في حقيقة تشريعية تتعلق بالذبائح وأكل الميتة، قال ابن كثير : «قوله ﴿ لِيُجَادِلُوكُمْ ﴾[الأنعام:١٢١]... خاصمت اليهود النبي ﷺ فقالوا نأكل مما قتلنا ولا نأكل مما قتل الله فأنزل الله:﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾[الأنعام:١٢١]»[١] .

وروى أن السدي قال: « إن المشركين قالوا للمسلمين كيف تزعمون أنكم تتبعون مرضاة الله فما قتل الله فلا تأكلونه وما ذبحتم أنتم تأكلونه، فقال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ ﴾ [الأنعام : ١٢١] في أكل الميتة ﴿ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام:١٢١] أي حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه إلى قول غيره فقدمتم عليه غيره فهذا هو الشرك»[٢] .

وأما ثانيهما فإن طاعة الشياطين بما توحي به في مواضيع الجدل من شأنه أن يسوق إلى الكفر والشرك، وذلك لأن المجادل من شأنه أن يستخدم الحجج الملفقة التي تنطوي على الغافلين من الجهلة حتى يصلوا بهم إلى الكفر أو الشرك وهم لا يعلمون.

ومن يمعن النظر في ما آل إليه أمر العالم العربي في القرن العشرين من اتباع ملة الاتحاد السوفيات يجد الوسيلة المعتمدة في الإقناع هي الجدل الذي ابتدأه هيجل ثم عمقه ماركس ليفصل الناس عن دينهم بدعوى أن الدين أفيون الشعوب، بينما القصد هو «أن ليس تحمس المدرسة الماركسية لإخضاع الحقيقة لقانون الحركة والتطور إلا لأجل القضاء على الحقائق المطلقة التي تؤمن بها الفلسفة الميتافيزيقية »[٣] .

(د) الكفر : وهو الحال التي يعقد عليها القلب القاسي فيصبح مستعداً لاتخاذ كل الأسباب التي تدافع عن معتقده، ومنها الجدل الذي قال الله تعالى

---

(١) تفسير القرآن العظيم : ٢ / ١٧١ (٢) نفسه

(٣) محمد باقر الصدر : فلسفتنا ص ١٦٩ ـ دار التعارف للمطبوعات ـ بيروت ١٩٨٢

فيه :﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾[غافر:٤] أي «ما يدفع الحق ويجادل في هذا القرآن بعد وضوح آياته وظهور إعجازه إلا الجاحدون لآيات الله المعاندون لرسله»[١]، قال الزمخشري : « سجل على المجادلين في آيات الله بالكفر، والمراد الجدال بالباطل من الطعن فيها والقصد إلى إدحاض الحق وإطفاء نور الله ... أما الجدال فيها لإيضاح ملتبسها وحل مشكلها ومقاومة أهل العلم في استنباط معانيها ورد أهل الزيغ بها وعنها، فأعظم جهاد في سبيل الله »[٢]، وعلى هذا فإن المعنى «مايجادل في آيات الله أنها ليست من عند الله،فإن القرآن الكريم تحداهم أن يأتوا بمثله فعجزوا، وإنما هو تلفيق وتستر عن عجزهم عن ذلك واعتصام بالمكابرة، فمجادلتهم بعد ما تقدم من التحدي دالة على تمكن الكفر منهم وأنهم معاندون »[٣].

فالكفار المكابرون الذين تمكن الكفر من قلوبهم وجعلها قاسية لا تعرف الحق ولا تقبل الالتفات إليه، مهما كانت الحجج والبراهين هم الطائفة التي تجادل في آيات الله وفي تشريعاته، أما المؤمنون فإنهم يتحاورون في مسائل لم يفهموها بغرض الفهم والإفهام، لا المغالطة والمغالبة.

* * *

(١) صفوة التفاسير ٣/٩٤
(٢) الكشاف : ٣/٤١٤ والقرطبي ١٥/٢٩٢
(٣) التحرير والتنوير ٢٤/٨٣